

النمو للأبد (الدائم): إعادة تشكيل النظام الرأسمالي لإنقاذ البشرية من كارثة مناخية¹مراجعة أ.د. حسن يوسف علي²

مقدمة

المؤلف: أليسيو تيرزي هو خبير اقتصادي شاب حصل على درجة الدكتوراه في عام 2020، ويعمل حالياً كمحاضر في HEC Paris و Sciences Po Lille، وهو يعمل أيضاً كالاقتصادي أول في المفوضية الأوروبية. وقبل ذلك، كان زميلاً في بروغل، وهي مؤسسة فكرية أوروبية رائدة في مجال الاقتصاد، وباحثاً في برنامج فولبرايت في كلية كينيدي لإدارة الأعمال بجامعة هارفارد. كما أن لديه أيضاً خبرة عملية في البنك المركزي الأوروبي.

تم نشر هذا الكتاب الذي نقوم بمراجعته في عام 2022 عن طريق دار نشر مرموقة (كلية هارفارد للأعمال) وهو فعلاً يستحق الجلبة والضوضاء التي قامت حوله. فعلى سبيل المثال كتب داني رودريك (الاقتصادي المعروف من جامعة هارفارد) أن "هذا الكتاب سيكون بمثابة مصدر إلهام. فإن رسالة تيرزي المتفائلة هي أن المستقبل الأخضر والأكثر عدلاً ممكن، ولكن فقط إذا أعدنا تشكيل الرأسمالية كما نعرفها".

ذكر باولو جنتيلوني، المفوض الأوروبي للاقتصاد ورئيس وزراء إيطاليا السابق أن "هذا الكتاب المهم سيأخذ القارئ في رحلة عبر التاريخ الاقتصادي لاستنتاج أن الناس والكون والازدهار ليسوا متوافقين فحسب بل لا ينفصلون. يجب أن يقرأ هذا الكتاب صانعو السياسات أو أي شخص مهتم بمكافحة تغير المناخ".

هذا الكتاب تم إدراجه في صحيفة فاينانشال تايمز تحت عنوان "قراءات ذكية." وتم التنويه عن الكتاب بالعبارة التالية: "إن تراجع النمو الاقتصادي أو وصوله للصفر هو إجابة سخيفة لأزمة المناخ"، كما يقول الاقتصاديان أليسيو تيرزي وجيرنوت فاغندر.

¹ Terzi, Alessio. Growth for Good: Reshaping Capitalism to Save Humanity from Climate Catastrophe. Harvard University Press, 2022.

-الكتاب متاح بمكتبة معهد التخطيط القومي.

² أستاذ الاقتصاد المتفرغ بجامعة ولاية أوهايو، ورئيس مجلس أمناء منتدى البحوث الاقتصادية، وعميد كلية إدارة الأعمال بجامعة النيل بالقاهرة.

النمو للأبد (الدائم): إعادة تشكيل النظام الرأسمالي لإنقاذ البشرية من كارثة مناخية

ما يحتويه الكتاب -بالإضافة إلى مقدمة حول "أسباب وجذور عدم الرضا" -جزأين. الجزء الأول عن النمو الاقتصادي والرأسمالية والجزء الثاني: الخطة الخضراء لتجنب الكارثة. يتضمن الجزء الأول 4 فصول: 1: حدود النمو الاقتصادي. 2: النمو وآليات الرأسمالية. 3: مساوئ ما بعد النمو. و4: الكناري الإيطالي في منجم الفحم الذي لا ينمو (دراسة حالة عن الاقتصاد الإيطالي). يتضمن الجزء الثاني أيضًا 4 فصول. الفصل 5: الأفكار الأساسية لاحتمية النمو 6: فهم رياح التغيير. 7: الكفاح العالمي من أجل كوكب الأرض. و 8: مخطط للرأسمالية الخضراء. وأخيرًا، الخاتمة: مستقبل النمو في عالم أخضر.

وفي حين أن العدد الإجمالي لصفحات هذا الكتاب هو 368، فإن ثلثها تقريبًا عبارة عن ملاحق وهوامش; مراجع; مسارد وفهرسة. هذا لا يدل فقط على البحث الدقيق الذي أجراه المؤلف، وإنما أيضًا أن يعطى المؤلف القدرة للقارئ على التحقق من كل التاريخ المسرود والتدقيق فيه، وكذلك في العلوم والمبادئ الاجتماعية والجغرافية، وغيرها من الفرضيات متعددة التخصصات التي أوردها الكتاب بالإضافة إلى الأدلة التي حرص المؤلف على تقديمها لدعم مخططة لمستقبل تنموي أخضر.

الحجة الرئيسية لكتاب "النمو إلى الأبد (أو الدائم)" هي أن النمو الاقتصادي يمكن إعادة تشكيله واستخدامه في مكافحة تغير المناخ، بدلًا من التخلي عنه. يبدأ المؤلف من نقطة يدفع فيها القارئ إلى الاعتقاد بأنه (المؤلف) يؤيد مبدأ النمو الصفري (أي أن الهدف هو التخلي عن النمو تمامًا). وذلك من خلال إظهار كيف تحسنت البيئة بالفعل مع دخول الاقتصاد في حالة إغلاق تام خلال فترة الكوفيد 19 (COVID-19). ويشير إلى أن تقليل النمو أو حتى تحويله إلى معدلات صفرية أو سالبة هو أمر جيد للحد من التلوث، وتحسين جودة الهواء والماء، ... إلخ. أي أن الدلائل التي يشير إليها الباحث في البداية من أن البيئة تحسنت، ومعدلات التلوث قلت، وأن جودة الهواء والمياه أصبحت أكثر من جيدة بسبب الإغلاق وتوقف معدلات النمو خلال فترة وباء الكوفيد جعلتني أشعر أنه يتبنى فكرة تقليل معدلات النمو أو حتى الوصول به إلى تعمل الصفر من أجل مجابهة أزمة المناخ وتحسين البيئة الطبيعية للأفراد والمجتمعات.

هذا كما أن اتهاماته التي شدد عليها ضد الرأسمالية بشكلها الحالي من أنها أولًا، تعمل لصالح القلة، وليست لعموم الشعب ومن ثم فإنها تسرع بتركيز الثروة والسلطة وتوزيع غير عادل للدخل والثروة. وثانيًا هي كنظام مدعوم بالوقود الأحفوري، تضع البشرية على مسار، إذا ترك دون تغيير، سيؤدي إلى كارثة مناخية حتمية في غضون سنوات؛ ذلك لأنه بشكل عام، وخلال حقبات تاريخية ممتدة ساهمت الرأسمالية بأساليب وسياسات التصنيع التي تخضع لرغبات ذوي القدرات المالية الكبيرة في انبعاثات وارتفاع درجة حرارة الغلاف الجوي للكوكب. ومع ذلك،

وبدلاً من مجرد ذكر استحالة الاعتماد فقط على السوق والنظام الرأسمالي الحالي لتغيير الأمور، يفصل الكتاب خطة تضم "حكومة نشطة، ورجال أعمال يحتاطون ويخططون"، و"مواطنين مشاركين" لمعالجة تغير المناخ، وتغيير النظام الرأسمالي للون الأخضر.

يعتمد الكتاب على تفسير الأصول الاجتماعية والاقتصادية والنشأة التاريخية والثقافية لاستكشاف حتمية النمو، ويقدم مساراً إلى الأمام لا يتطلب التخلي عن النمو الاقتصادي. وإنما يقترح مساراً مغايراً يساهم فيه النمو في استقرار الديمقراطية الليبرالية، والإدارة السلمية للعلاقات الدولية، وتنظيم المجتمعات.

يقدم تيرزي حجة مقنعة مفادها أن النمو الاقتصادي هو قوة من أجل الخير وأن هناك ما يبرر وجود مخطط لتعبئته للمساهمة في مكافحة تغير المناخ. لذا، بدلاً من النظام الرأسمالي الحالي مع دوافعه للنمو الاقتصادي الذي يمكنه تدمير الكوكب، فإن الرأسمالية الخضراء، التي يدعو إليها الكتاب ستكون محركاً لمكافحة تغير المناخ والتلوث وتقليص المساحات الطبيعية. كما أنها ستكون أداة رئيسية لإنقاذ البيئة، وليس علينا تقليص الاقتصاد؟ إذا لعبنا أوراقنا بشكل صحيح، فإن هذه التغييرات في الرأسمالية الخضراء قد تؤدي إلى مجتمع أفضل، خاصة في الدول الغنية، مما يساعد على التحرر من هوس لا طائل من ورائه بالثروة المادية التي تعيد القلة فقط.

يأخذ تيرزي هذه الأسئلة المشروعة كنقطة انطلاق لرحلة مثيرة في الأصول الاجتماعية والاقتصادية والأنثروبولوجية والثقافية تؤكد حاجتنا إلى النمو. ويجادل بأنه من الضروري أن يتم التغيير على مسؤوليتنا الخاصة. كما أنه برع في نقل القارئ عبر القرون والحضارات المتنوعة لإظهار أن التركيز على التوسع الاقتصادي متشابك بعمق مع سعي الإنسان إلى السعادة والرفاهية وتقرير المصير. ويجادل بأن النمو يرتكز على المبادئ والديناميكيات الأساسية وراء صعود الغرب إلى الثراء. وتشمل هذه الوضعية التنوير، وتسريع العلوم والتكنولوجيا، وفي نهاية المطاف، التقدم نفسه.

النمو من خلال الرأسمالية الخضراء هو الطريق الأمثل إلى الأمام الآن. والتخلي عن النمو في مجمله لن يثبت أنه غير عملي فحسب، بل أنه سيزرع أيضاً الفوضى، مما يؤدي إلى تفاقم الصراع داخل المجتمعات وفيما بينها.

يقدم النمو الأبدي (الدائم) أجندة ذات مصداقية لإشراك الرأسمالية في مكافحة كارثة المناخ. ومن خلال السياسات الصحيحة ومساعدة المواطنين النشطين والمشاركين مرة أخرى، يمكن للدول الرائدة أن تطلق موجة عالمية لإزالة الكربون وبالتوازي مع ذلك تخلق وظائف جيدة وعالم أفضل وأكثر اخضراراً وصحة.

النمو للأبد (الدائم): إعادة تشكيل النظام الرأسمالي لإنقاذ البشرية من كارثة مناخية

الميزة الرئيسية للكتاب هي قدرة المؤلف على شرح وتقييم ومراجعة بعض الخيارات والبدائل السياسية التي يتم اقتراحها باعتبارها عوامل مهمة لإصلاح النظم الرأسمالية الحالية. وتشمل تلك السياسات توفير الدخل الأساسي الشامل، وزيادة الضرائب على الثروة بشكل حاد، وتفكيك عمالقة التكنولوجيا، ونقل المعركة مع الأثرياء والمتهربين من الضرائب إلى الملاذات الضريبية التي يذهبون إليها، ووضع حد أقصى لأجور الرؤساء التنفيذيين، والاستعاضة عن المقاييس الضيقة للنتاج المحلي الإجمالي بتقييمات أوسع وأكثر تحديداً للرفاهية. وعلى الرغم من اعتبار هذه التدابير حلولاً محتملة لمعالجة تركيز الثروة والسلطة والأضرار الناجمة عن النزعة الاستهلاكية المفرطة في النظام الاقتصادي الحالي، إلا أنها أثبتت أنها غير كافية لتجنب الأزمات البيئية.

يقدم المؤلف أيضاً حجة مقنعة ضد مبدأ النمو الصفري. تعتمد هذه الحجة على العوامل التالية: أولاً، يؤكد أن النمو الاقتصادي متشابك بعمق مع آليات الرأسمالية وقد ارتبط تاريخياً بالتقدم والرفاهية والديمقراطية الليبرالية والعلوم والابتكار والاستهلاك. كما يسلب الضوء على أن وقف النمو يعني قطع إحدى الركائز الأساسية للنظام الاقتصادي، وبدلاً من إصلاح الرأسمالية، سيؤدي إلى زوالها. بالإضافة إلى ذلك، يشير إلى أن النمو الاقتصادي أمر حتمي لتلبية الاحتياجات الأساسية للناس في الدول الفقيرة أو النامية. علاوة على ذلك، يشدد على أن التخلي عن النمو الاقتصادي من شأنه أن يعيق مكافحة تغير المناخ، لأنه ضروري لتسريع تطوير الابتكارات "الخضراء" واعتمادها على نطاق واسع. في نهاية المطاف، يجادل تيرزي بأنه من خلال العمل السياسي الحازم ودعم المواطنين، يمكن للرأسمالية أن تصبح قوة من أجل الخير وأن التخلي عن النمو الاقتصادي ليس حلاً قابلاً للتطبيق في ظل الركائز والخصائص الأساسية الخاصة بالنظام الاقتصادي الحالي. وهكذا، يجادل مؤلف "النمو الأبدي (الدائم)" بأنه مع السياسات الصحيحة ومع المشاركة من مختلف أصحاب المصلحة، بحيث يمكن إعادة تشكيل النمو الاقتصادي للعب دور إيجابي في مكافحة تغير المناخ، بدلاً من أن ينظر إليه على أنه عقبة أمام حماية البيئة.

ومن ثم يمكن القول إن المؤلف يرى أن السياسات التالية تقع في صلب المخطط اللازم لتحويل الرأسمالية إلى اللون الأخضر، وهي مبتكرة في معالجة تغير المناخ ومكافحة كارثة المناخ:

- 1- مشاركة الحكومة النشطة: يقترح المؤلف الحاجة إلى حكومة نشطة تلعب دوراً استباقياً في تنفيذ سياسات مكافحة تغير المناخ. وتشمل هذه المشاركة التدابير التنظيمية، والحوافز الخاصة بالممارسات المستدامة، والاستثمارات في التكنولوجيات الخضراء.

2- المشاركة الاستباقية في الأعمال: يدعو المؤلف الشركات إلى القيام بدور نشط في تعزيز الاستدامة والحد من تأثيرها البيئي. يمكن أن يشمل ذلك اعتماد الممارسات الخضراء، والاستثمار في الطاقة المتجددة، ودمج الاستدامة في نماذج أعمالهم.

3- مشاركة المواطنين الملتزمين: يؤكد تيرزي على أهمية مشاركة المواطنين في دفع العمل المناخي. يمكن للمواطنين المشاركين دعم المبادرات المستدامة، والدعوة إلى تغييرات في السياسات بحيث تصبح أكثر مساهمة في عالم أكثر اخضرارًا وصحة من خلال أفعالهم وخياراتهم.

4- الحملة العالمية لإزالة الكربون: يقترح المؤلف أيضًا بدء حملة عالمية لإزالة الكربون بقيادة الدول الرائدة. تهدف هذه المبادرة إلى الحد من انبعاثات الكربون على نطاق عالمي والانتقال نحو اقتصاد أكثر استدامة وصدقية للبيئة.

5- خلق وظائف جيدة: أخيرًا، يقترح المؤلف الانتقال إلى اقتصاد أكثر اخضرارًا بحيث يمكن أن يتم خلق وظائف جيدة في قطاعات مثل الطاقة المتجددة والزراعة المستدامة والحفاظ على البيئة. ولا يمكن لهذا التحول أن يفيد البيئة فحسب، بل يجب أن يسهم أيضًا في النمو الاقتصادي وخلق فرص العمل.

ومرة أخيرة يقدم الكتاب "مجموعة من السياسات التي تنطوي على التدخل الحكومي، ومشاركة الشركات، ومشاركة المواطنين، وجهود إزالة الكربون العالمية، وخلق وظائف مستدامة لمعالجة تغير المناخ، وإعادة تشكيل الرأسمالية من أجل مستقبل أكثر استدامة."

ومع ذلك، فإن مراجعتي النقدية للكتاب تتبع من متطلباته وشروطه التي لا تتناسب سوى الدول المتقدمة. لا تمتلك البلدان النامية أو الأقل نموًا الشروط المسبقة المذكورة في الكتاب لتحويل نظامها الاقتصادي إلى رأسمالية خضراء. وهي "الحكومة النشطة، ورجال الأعمال الاستباقيون (الذين يحتاطون ويخططون)، والمواطنون المشاركون في معالجة تغير المناخ. جعلني هذا أتذكر النقد الرئيسي لنظرية "الدفعة الكبيرة" لروزنشتاين رودان الذي قدم نموذج الدفعة الكبيرة للتنمية في عام 1943، تم بناء النموذج على أساس أن جهدًا منسقًا ومتزامنًا (أي استثمارات آنية) في جميع الصناعات ومشروعات البنية التحتية في وقت واحد يمكنه أن يحدث النمو. وكان النقد الأساسي لهذه النظرية أنه إذا كان لدى بلد نامٍ أو أقل نموًا القدرة على القيام بمثل هذا الاستثمار الضخم في وقت واحد وفي جميع الصناعات، فلا ينبغي تصنيف هذا البلد على أنه بلد نامٍ أو أقل نموًا. وينطبق الشيء نفسه على نموذج الرأسمالية الخضراء لتيرزي، إذا تمكنت دولة ما من تحقيق مثل هذا التحول، بالشروط التي أوردها المؤلف، فإنها ليست دولة أقل تقدمًا.

النمو للأبد (الدائم): إعادة تشكيل النظام الرأسمالي لإنقاذ البشرية من كارثة مناخية

وحتى في الاقتصادات المتقدمة، فإن التركيز على الابتكار فقط كقوة دافعة للتحويل قد لا يكون موافياً لجميع البلدان. ويقر تيرزي بأن الانتقال بهذه الطريقة سيخلق رابحين وخاسرين حتى مع البلدان التي تمتلك الشروط المسبقة. قد تكون بعض الحكومات أكثر نشاطاً من غيرها، أو قد يكون بعض المواطنين أكثر انخراطاً من غيرهم. وفي رأيي "إذا لم تكن هناك هيئة دولية تعمل على تنسيق وترتيب وتنظيم الجهود، فإن الحكومات المختلفة على مستويات مختلفة من الكفاءة قد يعرقل بعضها بعضاً أو حتى تلغي جهود بعضها.

أيضاً، كيف يمكن لنظام رأس المال الأخضر أن يكون قادراً على الاستجابة للتغير الشديد في المناخ (الفيضانات الكبرى، تسونامي، ... إلخ). كما أن تثبيت النموذج على العلاقة المتبادلة بين العوامل الثلاثة (الرأسمالية والطبيعة والنمو) قد يتعثر في العلاقة الغامضة بين الطبيعة والنظام الرأسمالي. من الصعب جداً التنبؤ بالكيفية التي قد تأخذ بها الطبيعة مجراها في ظل ظروف معينة. وبالتالي، فإن كيفية استجابة النظام لهذه الأحداث غير المتوقعة يكاد يكون مستحيلاً.

وغني عن القول، إن اعتبار نمو الناتج المحلي الإجمالي هو المعيار الرئيسي الوحيد لرفاهية الأمة قد تعرض للهجوم لفترة طويلة، ولم تكن العديد من المحاولات للتعامل مع أوجه قصور (متوسط نصيب الفرد من الدخل القومي) ناجحة. ربما يمكن للمؤلف تقديم مقياس شامل جديد بالنظر إلى أن الرأسمالية الخضراء ستركز على الجوانب البيئية أكثر من أي نظام آخر.

المراجع الأجنبية

- Kate O'Reilly, Review of Growth for good: reshaping capitalism to save humanity from climate catastrophe, International Affairs 99(1):391-392, January 2023, DOI: [10.1093/ia/iiac288](https://doi.org/10.1093/ia/iiac288)
- London School of Economics public lecture program on "how to enroll capitalism in the fight to stave off climate catastrophe and ensure sustainable development, London, January 17th, 2023; <https://www.lse.ac.uk/Events/2023/01/202301171830/growth>.